شرح كتاب (عقيدة السلف وأصحاب الحديث) لأبي عثمان الصابوني-رحمه الله.

شرح فضيلة الشيخ

أ.د. أحمد بن عبدالرحمن القاضي

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس (٤)

فقد قرر الشيخ فيما تقدم قاعدة أهل السنة والجماعة فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته، وهو إثبات ما أثبته الله لنفسه في كتابه، أو أثبته له نبيه صلى الله عليه وسلم مما جاء في الأحاديث الصحاح، وضرب مثالًا لذلك بصفة اليدين، ثم إن الشيخ رحمه الله تعالى قال:

(وكذلك يقولون في جميع الصفات التي نزل بذكرها القرآن، ووردت بها الأخبار الصحاح من السمع والبصر والعين والوجه والعلم والقوة والقدرة والعزة والعظمة والإرادة والمشيئة والقول والكلام والرضا والسخط والحب والبغض) هكذا: والحل والبغض، في بعض النسخ: (والحياة واليقظة) وهو تصحيف لا يستقيم **(والفرح والضحك وغيرها من غير تشبيه لشيء من ذلك بصفات المربوبين المخلوقين، بل ينتهون فيها إلى ما قال الله تعالى وقاله رسوله صلى الله عليه وسلم من غير زيادة عليه، ولا إضافة إليه، ولا تكييف له، ولا تشبيه، ولا تحريف، ولا تبديل، ولا تغيير، ولا إزالة للفظ الخبر عما تعرفه العرب)** بين الشيخ رحمه الله أن ما ذكر من طريقة أهل السنة والجماعة، لا يقتصر فقط على صفى اليدين، بل هو منهج مضطرد ثابت لا يتخلف في جميع ما أخبر الله تعالى به عن نفسه، أو أخبر عنه نبيه صلى الله عليه وسلم مما صحت به السنة، فذكر جملة من الصفات الثابتة لله عز وجل، بعضها صفات معاني، وبعضها صفات فعلية، وبعضها صفات خبرية.

فنستعرضها على سبيل الإجمال: قال: **(من السمع)** السمع هو: إدراك الأصوات، وهذا ثابت لله عز وجل في كتابه بأنواع التصرفات، فالله سبحانه وتعالى قد قال في آية واحدة: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا} سمع فعل ماضي، {وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا} يسمع فعل مضارع، {إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} إذًا سمع، ويسمع، وسميع، كل ذلك ثابت لله عز وجل، وهكذا فهم أصحاب نبيه صلى الله عليه وسلم،

هذه المادة لم تراجع على الشيخ. حفظه الله.

قالت عائشة رضي الله عنها: سبحان الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة تجادل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإني لفي جانب البيت يخفى عليّ بعض كلامها، وقد سمعه الله من فوق سبعة أرقعة. إذًا هذا يدلنا على أنهم رضوان الله عليهم يفهمون من نصوص الصفات، ما يدل عليه الظاهر.

(**والبصر والعين**)، كما مر بصير، والعين قال الله عز وجل: {تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا} {وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي}، (**والوجه**): {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ} {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ}.

(**والعلم**) صفة العلم لله تعالى: {وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} القرآن مليء {يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ}، {وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ} إلى غير ذلك.

وعلم الله عز وجل يختلف عن علم المخلوق، فعلم المخلوق مسبوق بجهل، ويلحقه نسيان، أما علم الله عز وجل، فغير مسبوق بجهل، ولا يلحقه نسيان.

(**والقوة**) قال الله عز وجل: {وَهُوَ الْقَوِيُّ العَزِيزُ}. (**والقدرة**): {وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}. (**والعزة**): {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ}. (**والعظمة**): قال الله تعالى: {وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}. (**والإرادة**): {فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ}، (**والمشيئة**): {وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَن يَشَاء اللَّهُ}، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

لكن بهذه المناسبة، ما الفرق بين الإرادة والمشيئة؟

إرادة الله تعالى تنقسم إلى قسمين: إرادة كونية، وإرادة شرعية، والإرادة الشرعية هي التي بمعنى المحبة، والإرادة الكونية هي التي بمعنى المشيئة.

(**والقول**): والدليل على إثبات القول: كل آية فيها قال الله: {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى}، أيضًا: {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً}.

(**والكلام**): قال الله تعالى: {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا}، {مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ}.

(**والرضا**): الدليل: {رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ}. (**والسخط**): {ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ}.

(**والحب**): الدليل: {يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ}، {يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ}، {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ}.

(**والبغض**): الدليل: {فَلَمَّا آسَفُونَا} تدل على الغضب { كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ} والمقت هو أشد البغض.

(**الفرح**): الدليل من السنة: يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((لله أشد فرحًا بتوبة عبده من أحدكم براحلته ضلت عنه في أرض فلاة، وعليها طعامه وشرابه، فقام يطلبها حتى إذا آيس منها، آوى إلى شجرة ينتظر الموت، فتنبه فإذا هي قائمة عند رأسه قد علق خطامها بالشجر، فقال: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح)).

(**والضحك**): الدليل على إثبات الضحك: قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((يضحك الله لرجلين يقتل أحدهم الآخر، كلاهما يدخل الجنة))، سر ذلك أن أحدهما قتل صاحبه، وهو في حال الشرك، ثم منّ الله تعالى عليه بالإسلام، وجاهد فاستشهد فدخل الجنة فاجتمعا، قاتل ومقتول، فلذلك يضحك الله تعالى لهما.

كما تلاحظون هذه جملة من الصفات منها صفات ذاتية، ومنها صفات فعلية، ومنها صفات خبرية، ولعلنا بحاجة إلى أن نبين ما معنى هذه التقسيمات:

أما الصفات الذاتية: فهي الملازمة لذاته سبحانه وتعالى، التي لا يتصور انفكاكها عن الله تعالى بأي حال، مثل صفة السمع، والبصر، والعلم، والقدرة، هذه صفات ذاتية دائم ربنا تعالى متصف بها، لا يتصور أن تنفك عنه سبحانه.

الصفات الفعلية: هي المتعلقة بمشيئته وحكمته، إي أنه سبحانه وتعالى يفعلها متى شاء كيف شاء، مثالها مما سرد المؤلف: الفرح، الضحك، ومما لم يذكر المؤلف: النزول إلى سماء الدنيا، الاستواء على العرش، هذه تسمى صفات فعلية، يعني لا يلزم أن يكون الله تعالى متصفًا بها في كل حال، بل هي متعلقة بمشيئته وحكمته.

الصفات الخبرية: هي التي لا تثبت إلا بطريق الخبر، يعني إن العقل لا سبيل له إلى العلم بها استقلالا، مثل صفة الوجه، اليدين، هذه الصفات مهما أمعن الإنسان بالتعقل لا يمكن أن يصل إليها بمجرد العقل، بل لابد أن تثبت

بطريق النقل، وهو الخبر، لكن بعض صفات الله كالعلم تثبت بالنقل والعقل، فيمكن للإنسان بالعقل أن يثبت أن الله تعالى متصف بصفة العلم، متصف بصفة الحياة، متصف بصفة الحكمة، لكن اعلموا أن الصفات الخبرية، منها ما يكون ذاتيًا، ومنها ما يكون فعليًا، ذاتيًا يعني ثابتا لله تعالى دائمًا، ومنها ما يكون فعليًا، فمثلًا: صفة الوجه صفة ذاتية لله تعالى، لكن صفة الفرح والضحك هذه صفة فعلية، وكذلك الاستواء.

إذًا طريقة أهل السنة والجماعة ثابتة مضطردة لا تضطرب ولا تختلف من موضع دون موضع، ومن صفة إلى صفة كما بين المؤلف رحمه الله، طريقتهم في هذا أنهم لا يزيلون لفظ الخبر عما تعرفه العرب، وهذه قاعدة مهمة، فإن الله سبحانه وتعالى خاطبنا بلسان عربي مبين، فلذلك إذا أشكل علينا فهم شيء من القرآن رجعنا إلى لغة العرب، اضرب لذلك مثالًا:

قال الله عز وجل: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} ما معنى استوى؟

نجد في لغة العرب أن استوى إذا تعدت بعلى فمعناها حينئذ العلو، بدليل أن الله تعالى قال في القرآن الكريم عن الفلك والأنعام: {لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ}، فما معنى استواء الناس على الفلك والأنعام؟ علوهم وارتفاعهم عليها، واستقرارهم عليها، إذًا كذلك إذا قال الله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}، رجعنا إلى لغة العرب فقلنا معناها علا واستقر، فهكذا ينبغي، وهو معنى جواب الإمام مالك لمن سأله عن الاستواء فقال: (الاستواء معلوم) مراده: أي معلوم معناه في لغة العرب، وليس مراده كما زعم بعض المحرفين، أنه معلوم وروده في القرآن، هذا كلام ساقط، لأن السائل قدم بين يدي سؤاله فقال {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} كيف استوى؟ فالسائل لا يجهل ورود الاستواء في القرآن حتى يقال أن معنى قول الإمام مالك {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} الاستواء معلوم أي معلوم وروده في القرآن، كلا بل مراده معلوم معناه في لغة العرب.

(قال: **ولا إزالة للفظ الخبر عما تعرفه العرب وتضعه عليه**) أي أننا ينبغي أن نفهم القرآن كما جاء في لغة العرب، ووضعته عليه في أصل الوضع في اللغة العربية، يعني لا بتأويل (**منكر يستنكر**)، فها هو الشيخ رحمه الله يرد على أهل البدعة بدعتهم، وينكر التأويل المستنكر، والتأويل المستنكر هو التأويل الذي لم يدل عليه الدليل،

هذه المادة لم تراجع على الشيخ. حفظه الله.

فالتأويل الذي لا دليل عليه تأويل باطل، لكن إن كان التأويل قام على دليل صحيح قبلناه، وحينئذ يصبح معناه التفسير.

مثال التأويل الصحيح الذي دل عليه الدليل: كقول الله عز وجل: {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ}، نقول تأويله: فإذا أردت أن تقرأ القرآن، وليس إذا فرغت منه، فهذا تأويل صحيح دل عليه الدليل من فعل النبي صلى الله عليه وسلم، ومن ملاحظة المعنى أن الاستعاذة إنما تكون بين يدي التلاوة لا بعدها.

مثال آخر: قول أنس رضي الله عنه: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل الخلاء نزع خاتمه)، نقول تأويله: إذا أراد أن يدخل الخلاء، لدلالة فعل النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك ولملاحظة المعنى.

أما التأويل الذي لا دليل عليه، فهو تأويل فاسد:

كتأويلهم اليد بمعنى النعمة، أو القدرة، أو الاستواء بمعنى الاستيلاء، أو الوجه بمعنى الثواب، أو غير ذلك من أنواع التأويلات الباطلة التي يسميها السلف تحريفًا، فالواقع أنها تحريف.

(قال: **ويجرونه على الظاهر**) هكذا أمرنا أن نجري الكلام على ظاهره، وألا نتعمق في البحث عن خلاف الظاهر، فإن القرآن العظيم خطاب الله للمكلفين، فهو خاطبهم بما يظهره منه، لكن بعض الناس يتبادر إلى ذهنه معنى فاسد يظن أنه هو الظاهر، فيظن أن ظاهر قول الله عز وجل: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ} يد كيد المخلوقين، ويظن أن ظاهر قول الله عز وجل: {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ} أنه وجه كوجه المخلوقين، فنقول: كلا، من قال لك أن هذا هو الظاهر، هذا ظاهر تبادر إلى ذهنك، لكن ليس هذا هو المراد، بل الظاهر هو اثبات صفة حقيقية لله تليق بجلاله وعظمته، لا تشبه صفات المخلوقين.

(قال: **ويكلون علمه إلى الله تعالى**) أي كيفيته وحقيقته التي هي عليه في الواقع، هذا يكلونه إلى الله عز وجل، يعني يفوضون علم الكيفية إلى الله سبحانه وتعالى، لأنه لا سبيل لنا إلى أن نعرف كيفية وحقيقة ما عليه صفات الله عز وجل في الواقع، هذا لا سبيل للعقول إليه، كما أنه لا سبيل للأبصار إليه {لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}، فكذلك العقول لا تبلغ كنهه سبحانه وتعالى.

(قال: **ويقرون بأن تأويله لا يعلمه إلا الله، كما أخبر الله عن الراسخين في العلم أنهم يقولونه في قوله تعالى: {وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُوا الأَلْبَابِ}**) قول الشيخ: (**ويقرون بأن تأويله لا يعلمه إلا الله**) مراده بتأويله ها هنا: أي كيفيته وحقيقته التي هو عليها في الواقع، فهذا لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى.

وبهذه المناسبة: اعلموا أن لفظ التأويل له ثلاث استعمالات، ومن المهم أن تعرف هذا التقسيم ليزول عنك الاشكال فيما يقابلك مما يتعلق بهذا اللفظ:

الاستعمال الأول: استعماله في القرآن، وهو بمعنى الحقيقة التي يؤول إليها الشيء ويكون عليها في الواقع، فهكذا جاء لفظ التأويل في القرآن، من جنس قول الله تعالى: {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ} يعني تحققه ووقوعه يوم القيامة، {يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ}، يعني يوم يأتي تحققه، فهذا هو معنى التأويل في لغة القرآن.

الاستعمال الثاني: يأتي بمعنى التفسير، وشاهده قول النبي صلى الله عليه وسلم في الدعاء لابن عباس: ((اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل))، معنى التأويل ها هنا أي التفسير، يعني تفسير القرآن العظيم، وهكذا كان ابن عباس رضي الله عنهما حبر هذه الأمة وترجمان القرآن.

الاستعمال الثالث: هو ما جاء في اصطلاح المتأخرين من المتكلمين، وهو: صرف اللفظ عن ظاهره إلى معنىً يخالف الظاهر، والمتكلمون يشترطون للتأويل وجود القرينة.

هذه هي الأقسام الثلاثة، فلننظر حينئذ في هذه الآية الشريفة التي استدل بها المؤلف رحمه الله، ولنقرأ ما قبلها، قال الله عز وجل: {هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا} يسمي العلماء قراءة الوقف عند الوقوف على قوله تعالى: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ} قف، ثم تستأنف: {وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا}، إذًا على مقتضى هذه القراءة السبعية الصحيحة، وهي قراءة الجمهور، التأويل من اختصاص الله سبحانه وتعالى، لا يعلم التأويل أحدًا إلا الله، على

قراءة الوقف، لأن التأويل على قراءة الوقف معناه الحقيقة والكيفية، فالله عز وجل يقول: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ} يعني ما يعلم حقيقته وكيفيته التي هي عليها في الواقع إلا الله سبحانه وتعالى قف ثم استأنف {وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا}، آمنا به: أي قبلناه، وصدقنا به، حتى وإن لم نعلم كيفيته وحقيقته، لكننا نقبل خبر الله، ولا نرده على ربنا، نقول آمنا به، فإذا أخبرنا الله تعالى عن صفاته، وأخبرنا عن الجنة؛ فإننا نؤمن بما أخبرنا الله تعالى به، وإن كنا لا نعلم حقيقتها وكيفيتها التي هي عليه في الواقع، فهذا على قراءة الوقف.

لكن ثمّ قراءة أخرى وهي قراءة صحيحة، قراءة ثابتة: قراءة الوصل، بأن يقرأ الإنسان: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ}، فهذه القراءة، نحملها على أن المراد بالتأويل: التفسير، فيكون الراسخون في العلم، يعلمون تأويله بمعنى التفسير، ولهذا روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (أنا من الراسخين في العلم، أنا أعلم تأويله)، فنقول ولله الحمد كلا القراءتين صحيح، لكن إذا قرأنا على قراءة الوقف فالتأويل حينئذ معناه: الحقيقة والكيفية، وإذا قرأنا على قراءة الوصل فالتأويل حينئذ معناه: التفسير، فلا إشكال، وقد روي عن ابن عباس (تفسير القرآن على أربعة أوجه: فوجه تعرفه العرب من لغتها، ووجه لا يعذر أحد بجهالته، ووجه لا يعلمه إلا العلماء، ووجه لا يعلمه إلا الله، فمن ادعى علمه فقد كذب).

لننظر في هذه الأقسام الأربعة: يقول ابن عباس وحسبك به رضي الله عنهما:

(تفسير القرآن على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من لغتها): أي أنه معروف في لغة العرب، كـــ معنى الفلق، والرقيم، وغاسق، ونحو ذلك، فهذا موجود في دواوين اللغة، والمعاجم.

(ووجه لا يعذر أحد بجهالته): مثل أن يقول الله عز وجل: {أَقِيمُواْ الصَّلاَةَ}، فنعرف ما هي الصلاة، فلا يعذر أحد بجهالته؛ لأن هذا من المعلوم من الدين بالضرورة بأن الصلاة عبادة ذات أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم، {وَآتُواْ الزَّكَاةَ}، ونحو ذلك، فهذا وجه ثاني.

الوجه الثالث: (لا يعلمه إلا العلماء): يعني أنه يحتاج إلى مزيد تبحر وطلب للعلم، كمعرفة الناسخ والمنسوخ، والعام والخاص، والمطلق والمقيد، والمجمل والمبين، ونحو ذلك، فهذا ليس متأتيًا لكل أحد، ولا يفهم من مجرد القراءة، بل لابد من علم، فلهذا لا يعلمه إلا العلماء.

الوجه الرابع: (لا يعلمه إلا الله، فمن ادعى علمه فقد كذب) فالمراد به العلم بكيفيات ما أخبر الله تعالى به عن نفسه أو عن اليوم الآخر، فإن هذا لا سبيل لأحد للعلم به، مثلًا: اليوم الآخر، يقول النبي صلى الله عليه وسلم عن الجنة: ((فيها ما لا عين رأت، ولا إذاً سمعت، ولا خطر على قلب بشر))، مع أن الله سبحانه وتعالى أخبرنا عن الجنة أن فيها: {أَنْهَارٌ مِّن مَّاء غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى}، ومعروف في اللغة معنى الماء ومعنى العسل ومعنى الخمر معروف معاني هذه الكلمات، لكن الأسماء واحدة، والمسميات تختلف، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما أيضًا: (ليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماء)، فإذا كان هذا في المخلوقات فلا شك أن ما يتعلق بصفات الله عز وجل من باب أولى وأحرى، فهذا النوع من التفسير من ادعى علمه فقد كذب، لاشك لأنه لا سبيل إلى العلم به. فهذا ما قرره الشيخ رحمه الله تعالى في هذه المسألة وهي مسألة صفات الله عز وجل.

ونكتفي بهذا القدر هذا اليوم، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.